

فتح القدير

18 - و { صم } وما بعده خبر مبتدأ محذوف : أي هم وقرأ ابن مسعود صما بكما عميا بالنصب على الذم ويجوز أن ينتصب بقوله تركهم والصمم : الانسداد يقال قناة صماء : إذا لم تكن مجوفة وصممت القارورة : إذا سددتها وفلان أصم : إذا انسدت خروقه مسامعه والأبكم : الذي لا ينطلق ولا يفهم فإذا فهم فهو الأخرس وقيل : الأخرس والأبكم واحد والعمى : ذهاب البصر والمراد بقوله : { فهم لا يرجعون } أي إلى الحق وجواب لما في قوله فلما أضاءت قيل هو : { ذهب ا } بنورهم { وقيل : محذوف تقديره : طفئت فبقوا حائرين وعلى الثاني فيكون قوله : { ذهب ا } بنورهم { كلاما مستأنفا أو بدلا من المقدر .

ضرب ا هذا المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام كمثل المستوقد الذي أضاءت ناره ثم طفئت فإنه يعود إلى الظلمة ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة فكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل لأن الباطل كذلك تستطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت ومنه قولهم : للباطل صولة ثم يضمحل وقد تقرر علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنا عظيما في إبراز خفيات المعاني ورفع أستار محجبات الدقائق ولهذا استكثر من ذلك في كتابه العزيز وكان رسول ا A يكثر من ذلك في مخاطباته ومواعظه قال ابن جرير : إن هؤلاء المضروب لهم المثل ها هنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى : { ومن الناس من يقول : آمنا با } وبالיום الآخر وما هم بمؤمنين { وقال ابن كثير : إن الصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم كما يفيد قوله تعالى : { ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون } قال ابن جرير : وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال : { رأيته ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت } أي كدوران عيني الذي يغشى عليه من الموت وقال تعالى : { مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا } أهـ وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : { مثلهم كمثل الذي استوقد نارا } قال : هذا مثل ضربه ا للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفية فلما ماتوا سلبهم ا العز كما سلب صاحب النار ضوءه { وتركهم في ظلمات لا يبصرون } يقول : في عذاب { صم بكم عمي } فهم لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله : { مثلهم كمثل الذي استوقد نارا } قالوا : إن ناسا دخلوا في الإسلام

عند مقدم النبي A المدينة ثم نافقوا فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد نارا فأضاءت ما حوله من قذى وأذى فأبصره حتى عرف ما يتقي فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى فكذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال من الحرام والخير من الشر فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر فهم صم بكم هم الخرس فهم لا يرجعون إلى الإسلام وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : { كمثل الذي استوقد نارا } قال : ضربه الله مثلا للمنافق وقوله : { ذهب الله بنورهم } قال : أما النور فهو إيمانهم الذي يتكلمون به وأما الظلمة فهو ضلالهم وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه وأخرج أيضا عن قتادة نحوه وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة والحسن والسدي والربيع بن أنس نحوه ما تقدم